المشكلة، في نظر ابن رشد، هي التطرف يمينا ويسارا...

محمد عابد الجابري

أبرنا في المقالين السابقين كيف أن ابن رشد الذي طلب منه صديقه الأمير أبو يحيى لموحدي أن يكتب له كتابا في "السياسة"، بالمعنى الذي يستعمل فيه الفلاسفة هذا المصطلح، د اضطر إلى تلخيص كتاب الجمهورية لأفلاطون لعدم عثوره على كتاب "السياسية" لأرسطو، قلنا إنه كان عليه –في هذه الحال– أن يعيد كتابة جمهورية أفلاطون على أساس نظرية رسطو في تأسيس العلم السياسي، الشيء الذي يعني تعويض خطاب الحوار والجدل والتخييل لذي بنى عليه أفلاطون كتابه بخطاب "علمي" تحليلي تركيبي، خطاب برهاني باصطلاح بن رشد. وقد تطلب ذلك إعادة بناء كتاب أفلاطون كي يستجيب لـ"مقتضى الحال" الذي كل ن فيلسوف قرطبة يفكر في إطاره. وهكذا تطلبت منه عملية إعادة البناء القيام بالتعديلات لتالية:

– لم يتقيد فيلسوف قرطبة بالطريقة التي سلكها أفلاطون في تبويب كتابه (إلى عشرة تب: فصول، مقالات)، بل خط لـ"مختصره" تبويبا منطقيا جديدا يستجيب للصياغة العلمية لتي توخاها، فجعله في ثلاث مقالات، استهلها بمقدمة وأنهاها بخاتمة:

أهمل ابن رشد "المدخل" الذي استهل به أفلاطون محاورته والذي استعرض فيه على لسان لمتحاورين المعاني التي يعطيها كل فريق من الناس لمعنى "العدل" بأسلوب جدلي، قد لا يخلو ن السفسطة أحيانا لينتهي النقاش إلى حقيقة أن "العدل" يجب البحث عنه، لا في إطار نظرة لأفراد كأفراد بل في إطار الدولة أو المدينة. أهمل ابن رشد هذا المدخل الجدلي، الذي شغل الكتاب الأول" والثلث الأول من "الكتاب الثاني" من "الجمهورية"، وعوضه بمقدمة حدد فيها لمعطيات النظرية والمنهجية التي سيعتمدها في "تجريد الأقاويل العلمية" من محاورة أفلاطون.

بعد هذه المقدمة التي كتبها ابن رشد خارج نص أفلاطون متجاوزا أُفُقه الجدلي إلى لصياغة البرهانية الأرسطية، "اختصر" فيلسوفنا "الجمهورية" وركزها حول محاور ثلاثة خص ل واحد منها بمقالة، فجاء الكتاب في ثلاث مقالات: عرض في الأولى –بعد المقدمة– البرنامج لذي خطه أفلاطون لتشييد المدينة الفاضلة، وعرض في الثانية الشروط والخصال الضرورية رئيسها (الفيلسوف)، وخصص الثالثة لتحليل أنواع السياسات (أو أنظمة الحكم) والمقارنة

ي رئيسها (الفيلسوف)، وخصص الثالثة لتحليل أنواع السياسات (أو أنظمة الحكم) والمقارنة

ينها، وبين رؤسائها بعضهم مع بعض كما فعل أفلاطون. وهكذا عرض ابن رشد في ثلاث قالات ما عرضه أفلاطون في محاورته ابتداء من بداية الثلث الثاني من الكتاب الأول إلى هاية الكتاب التاسع.

ما يلفت النظر هنا، ومن الواجب إبرازه، هو أن ابن رشد لم يسجن نفسه في الإطار الذي حرك فيه أفلاطون، بل لقد تصرف فيلسوف قرطبة كشريك في إنتاج النص. وإذا نحن جمعنا ما تبه ابن رشد من عنده خارج الأفق الأفلاطوني فسنجده يناهز ثلث الكتاب! وهكذا فإضافة إلى لمقدمة التي كتبها ابن رشد من عنده وفقرات أخرى كثيرة، في المقالة الأولى والثالثة، كتب ن عنده أيضا أكثر من ثلثي المقالة الثانية التي خصصها، أفلاطون لتربية وتعليم الفيلسوف رئيس المدينة الفاضلة. ذلك أن ابن رشد قد ترك جانبا تعريف أفلاطون للفيلسوف (الذي يقول يه: إنه الذي يطلب معرفة الوجود، الناظر في حقيقته، مجردا عن المادة (الجسمية) وينبني هذا عنده على رأيه في المثل: مُثُل أفلاطون)، ترك ابن رشد هذا التعريف جانبا واتجه بالخطاب لى قارئه قائلا: "وأنت ينبغي أن تعلم أن الفيلسوف هو الذي جعل نظره في العلوم النظرية على لقصد الأول، على حسب شروط أربعة. ثم ينطلق في شرح هذه الشروط "الأرسطية" التي تقع خارج أفق أفلاطون. ولا يعود إليه في موضوع الخصال المطلوبة في رئيس المدينة الفاضلة – زيادة على العلوم النظرية، علوم الفلسفة- إلا لينفصل عنه في النتيجة التي يستخلصها فلاطون، وهي الاعتراف بصعوبة الحصول على من تتوافر فيه تلك الشروط والخصال، بالتالي الشك في إمكانية قيام المدينة الفاضلة على أرض الواقع. يرفض ابن رشد هذا الشك يرى أن قيام هذه المدينة شيء ممكن، ليس إمكانا مطلقا فحسب بل أيضا إمكانا محددا معينا زمان ومكان، هما زمان ابن رشد ومكانه. ويشرح فيلسوف قرطبة ذلك ويقول: يمكن أن نربي ناسا بالصفات الطبيعية التي حددها أفلاطون، و"إلى جانب ذلك ينشأون وقد اختاروا الناموس لعام المشترك الذي لا مناص لأمة من هذه الأمم من اختياره (يقصد هنا الإسلام)، وإلى جانب لك تكون شريعتهم الخاصة بهم غير مخالفة للشرائع الإنسانية، وتكون الفلسفة قد بلغت على عهدهم غايتها. وذلك كما هو عليه الحال في زماننا هذا وفي ملتنا هذه [الإسلام]، فإذا ما اتفق مثل هؤلاء أن يكونوا أصحاب حكومة [حكم]، وذلك في زمن لا ينقطع، صار ممكنا أن توجد هذه المدينة"، إذن المدينة الفاضلة ممكنة في الأندلس زمن ابن رشد إذا توافر :

– رجال يعرفون الناموس العام المشترك الذي لا مناص منه لأمة من الأمم.

– وتكون شريعتهم الخاصة بهم غير مخالفة للشرائع الإنسانية.

– وتكون الفلسفة قد بلغت على عهدهم غايتها. ثم يضيف "وذلك كما هو عليه الحال في زماننا هذا وفي ملتنا هذه.

وعندما يتساءل أفلاطون، في إطار تشكيكه في إمكانية قيام مدينة فاضلة على رأسها فيلسوف، عن السبب في كون الناس لا يستفيدون من الفلسفة ويجيب بمعطيات من زمانه وبلده اليونان، يطرح فيلسوف قرطبة السؤال نفسه ويستعيد جواب أفلاطون ولكن في إطار تجربته هو، في بلده وزمانه. وهكذا وضع مكان السفسطائيين اليونانيين الذين اشتكى منهم أفلاطون، سفسطائيين آخرين عانت منهم الفلسفة في زمن ابن رشد، أولئك الذين نصبوا أنفسهم خصوما وأعداء للفلسفة والفلاسفة فحاربوها وضيقوا الخناق عليها إلى درجة أن حضور الفلسفة في زمانه وفي شخصه هو (ابن رشد)، إنما هو بفضل العناية الإلهية. يقول: "ومن هذا النوع من الناس، تظهر فئة السفسطائيين القائمين على أمر هذه المدن (في الأندلس) ممن يُعرضون عن كل ما هو جميل، كالفلسفة وغيرها، ويستحسنون كل ما هو قبيح. وبالجملة كل الشرور المدنية الواقعة في مثل هذه المدن. أما آراؤهم وتسلطهم على المدن، فهي أكبر أسباب ضياع الفلسفة وانطفاء نورها. وستعلم إذا ما تفحصت الأمر أن أمثال هؤلاء الرجال هم الأكثر عددا في هذه المدن (الأندلس والعالم الإسلامي). فإذا ما نجا أحد من الخلق في هذه المدن، فإنك لن تعدو الحق، إذا ما قلت بأن الله اصطفاه بعنايته السرمدية".

ولا يقتصر ابن رشد على التنديد بخصوم الفلسفة في زمانه بل يستنكر أيضا، وبقوة، سلوك المشتغلين بها في عصره الذي لا يتحلون بالفضائل العلمية والخلقية والذي يسيئون إلى الفلسفة أكثر من خصومها. يقول: "وأما من يتعاطون الفلسفة ممن لم تكتمل فيهم هذه الصفات، فالأمر فيهم بيّنٌ أيضا. فهم مع كونهم لا يُسدون نفعا للمدن (للمجتمع)، فإنهم مع ذلك أكثر الناس إضراراً بالفلسفة. وذلك لأنهم على الأغلب يميلون ميلا إلى الشهوات وإلى جميع الأفعال القبيحة كالجور والظلم، إذ ليس لهم في جوهرهم فضيلة تمنعهم من الإتيان بهذه الأفعال. ولا يصْدقون أيضا في أقوالهم التي يرهبون بها أهل المدينة فيما يأتون به من تلك الأمور، فيكونون عارا على الفلسفة، وسببا في إيذاء كثير ممن هم أولى منهم بها، كما هو عليه الحال في زماننا هذا". ما يشتكي منه ابن رشد هو وجود متطرفين يحاربون الفلسفة باسم الدين، من جهة، ومتطرفين آخرين يشوهون الفلسفة بتصرفاتهم وأقولهم غير المسئولة (يمكن أن نضع مكان كلمة "الفلسفة" لفظ "الحداثة").

وهكذا يجد الفيلسوف الحق نفسه في مثل هذه الحال، بين خصوم الفلسفة والمتفلسفيـــــن لمسيئين إليها، في وضعية حرجة عبر عنها فيلسوف قرطبة مستعيدا تجربة ابن باجة، فقال : وإذا اتفق ونشأ في هذه المدن فيلسوف حقيقي، كان بمنزلة إنسان وقع بين وحوش ضارية، لا هو قادر على أن يشاركها فسادها، ولا هو يأمن على نفسه منها. ولذلك فإنه [يفضل] لتوحد ويعيش عيشة المنعزل ...".